أثر الإسلام

هذه صورة مجملة للمجتمع البدوى الجاهلى الذى كان منعزلاً فى جزيرته ولما جاء الإسلام غير من كل هذا ، فطالبهم بالجهاد ، والغزو فى ممتلكات الفرس والروم ، فخرجت جماهيرهم كالسيل المندفع فأزالوا الأولى وخضعوا الثانية، واحتلوا ما اتسع من الأرض يفلحونها ويزرعونها ، واستوطنوا المدن يتمتعون بخيرها ونعيمها وأنهارها وسهولها ، فتبدلت بهم الحال ، ولم تعد حياتهم حبساً على المطر يتشوقونه فى الجو المتلبد ، ويتسمعونه فى الريح المزجى وهكذا خلصهم الإسلام من خرافات الجاهلية وأوهامها التى قد رانت على قلوبهم ، وغيَّر نفسياتهم فى عقائدها وعباداتها ، وعاداتها ، وأخلاقها .

أشرنا فيما سبق إلى أن الحياة العربية فى أواخر القرن السادس المسيحى وأول القرن السابع قد أخذت فى التطور سياسياً ، ودينياً ، وأدبياً واجتماعياً وبدأت تستحيل أثناء هذه الفترة ، وأتى عليها فلم يغيرها طفرة وإنما قواها ، وعدل اتجاهها بتعاليمه الدينية الحرة فأخذ يصقلها ويدفعها إلى الأمام بالتدريج ، وآبة ذلك أن بقيت عادات جاهلية ، وتقاليد قديمة شائعة ، مدة القرن الأول للهجرة ومن مظاهر ذلك هذه الردة التى أعقبت وفاة الرسول ﷺ – ثم هذه الظواهر التى نراها فى حياة الحطيئة ، وفحول الشعراء الأمويين ، وعند جماعة من الولاة الإسلاميين الذين تجاهروا بالإثم والعنف فلامهم الخلفاء ووقفوا بهم عند حد الاعتدال كل ذلك يدل على أن الحياة الجاهلية لم تُمحَ من نفوس العرب تماماً بمجرد ظهور الإسلام ، وغنما بقيت آثارها مدة من الزمان .

ففى الناحية السياسية ، نجد أنها استمالت إلى جهاد باللسان وبالسلاح فتوح وحروب ، فلا قتال إلا فى نشر دين الله ، ولا غزو إلا فى إعلاء كلمة الله .

وفى ناحية الدين ، فقد استقر الإسلام واعترف به العرب واعتنقوه وتمت لهم وحدتهم الدينية .

بقيت الناحية الأدبية التى تعنينا هنا فقد أصبحت متصلة بالقرآن الكريم ، وكلام الرسول ﷺ – أولاً ، وبهذه النهضة الإسلامية ثانياً . لقد بهرهم القرآن ببديع أسلوبه ، ومحكم آياته ، وتلاؤم فواصلة ، فخروا أمامه ساجدين وطفقوا به يستعينون ومنه يقتبسون ، ثم رأوا فى كلام الرسول – وهو منهم – فصاحة متدفقة ، وبلاغة متمكنة يخاطب كل قبيل بأعلى ما عرف فى لهجته كأنه نشأ فيهم وَرُبِيَّ فى أوساطهم ، فأخذوا يقصدون قصده ، وينهجون نهجه حتى ازدانت ألفاظهم ببريق ألفاظه وأشرقت معانيهم بِغُرَرِ معانيه .

وكان من أثر الإسلام أن هجرت ألفاظه وجدت ألفاظ وماتت ، وماتت معان ونشأت معان وعدل من أغراض إلى أغراض وما هذا بالمحتاج إلى إيراد للشواهد وضرب الأمثال للأمثال ، إذ سيأتى فى البحوث التالية .

الأدب الإسلامي (تكوينه – عوامله)

لما كان الأدب صورة الحياة السياسية والاجتماعية والفردية كان من الطبيعى أن يتأثر بهذه الحياة الجديدة التى أحدثها القرآن فى الحياة الإسلامية الجديدة التى ظهرت فى تمدين الأدب العربى وتحضره ، فقد كان أدباً بدوياً يتناول الصحراء وما يلابسها من حيوان ونبات وجماد ، وهو بذلك فعل ساذج جاهلى لا تجد فيه تفكيراً مضطرداً عميقاً ، ولا خيالاً مركباً ولا عاطفةً عميقة ، فأخذ الإسلام – والقرآن – بيده وأحله محالٍ جديدة فى وادى النيل ودجلة والفرات وبلاد الروم والفرس ، وبذلك أخذ يكتسب من هذه البيئات والشعوب تمديناً وتحضراً بلين العيش ورقة المشاعر ، وكثرة المعارف فوجدت فى الأدب الإسلامى فنون وموضوعات حضرية تتصل بالسياسة والدين والتقاليد الجديدة ، كما وجدت أساليب ومعانى طريفة هى عنوان مدنية جديدة.

وانتشر الأدب فى هذه المواطن ، وقام بأسباب الحياة فيها فصار فيما بعد أدب بلاد الشام والعراق ومصر وإيران وشمالى أفريقية ، وقضى على الآداب واللغات القومية وحل محلها وصار يحمل اسم الأدب الإسلامى بعد ما كان يسمى الأدب العربى بما احتل من حضارات ، واحتمل من آفاق .

ومر على تكوينه تحرر الفكر البشرى ودعوته إلى التفكير والتخلى عن تقاليد الجاهلية وأوزارها إلى تعليم الإسلام وأخوَّته العامة التى تؤلف بين النفوس والشعوب ولا تتعصب فى وجه أهل الكتاب ، الذين عاشوا مع المسلمين فى حوار وتعاون وأخوة لا ينكرها الإسلام ، كما كان للعلوم الإسلامية والنهوض بها – وذلك بسبب القرآن خدمةً لتحقيق دعوته وتشريعه أو لمجاراته حضارته الواسعة

المتشعبة ، أثر عظيم فى الأدب الإسلامى ، كما كان للحركات الفكرية ، والثقافات الأجنبية ، الفارسية والرومية والهندية ، أثر فى الأساليب العربية .

وهناك آثار مباشرة ظهرت فى الأدب الإسلامى ، وكان لها طابع هذا العصر الجديد الذى يميزه من العصر الجاهلى ، ويمكن إجمالها فيما يلى : -

١- اتخاذ الإسلام نفسه موضوعاً للأدب ، بالجدل حوله والدعوة إليه ، وتناول أحداثه ، وقد ظَهَرت هذه الظاهرة منذ الهجرة وقيام الغزوات ، فصار الدفاع عن الإسلام ومهاجمته مشغلة شعراء " قريش " والأنصار " (مكة والمدينة) ثم استحالت الفكرة فيما بعد، فصارت المعركة بين الإسلام وشعبة (من خوارج وشيعة ، وأمويين وعلويين وزبيريين .....إلخ) .

٢- هذه الفنون التى استحدثها الإسلام ، وأخصها الشعر السياسى والهجائى والغزلى ، فقد كانت هذه الفنون بأوضاعها وخواصها المتازة ظاهرة إسلامية دعت إليها أسباب ، نتناول شرحها بالتفصيل فيما بعد .

٣- وبين الديانات والشعوب الأخرى حين نهض الموالى ، وظهرت مسألة الشعوبية قوية فى القرن الثانى والثالث ، ثم تحققت مظاهرها لما نشأت الآداب والحكومات القومية .

وقد ظهرت هذه منذ واقعة " صفين " واستمرت إلى نهاية العصر الأموى وأحدثت آثارها فى الشعر وفى النثر ، أى فى هذه الخطب القوية الجزلة عند الخلفاء والأمراء ورجال الأحزاب المختلفة ، وفى الجدل حول المذاهب والآراء السياسية والدينية ، وفى المراسلات المطولة الجامعة ولاشك أن للقرآن فضلاً عظيماً فى بروز هذه الفنون وظهورها حقيقة ذات سهولة ورقة من جهة وجزالة وقوة من جهة أُخرى .